تاريخهم من لغتهم

العرب أوّل الفلكيّين ؟

بقلم عبد الحق فاضل

نعم ، انما نقصد ان نقول انهم (اول) الفلكيين في التاريخ الانساني ، على ما يظهر ، لا اعظمهم شأنا ولا ابعدهم صيتا ، لان بعد صيتهم وعظمة شأنهم في العلوم عامة وعلم الفلك خاصة ، خلال عهود الازدهار الاسلامية، منقبة لم يعد يجهلها الا جاهل .

ومن بقايا معارفهم واستكشافهم في القارة السماوية، خلفوا من آثار اقدامهم في اللغات الاوروبية الحديثة عددا كبيرا من الالفاظ العربية كأسماء النجوم ومصطلحات الفلك ، ومنها في الانكليزية مثلا : Algieba (الجبهة) ، و Algedi (الجدي) ، و Aldebaran (الدبران) ، و Azha (اذحى النعام) ، و Talifha (نجم الثالثة) ، و Zaniah (الثانية من العواء) ، و Betelguese (منكب الجوزاء) ... و nadir (النظير) ، و zenith (السمت ، سمت الراس) ، و azimuth (السموت ، سمت السموت) ...

كذلك لا نقصد بقولنا ان العرب اول الفلكيين حتى الاكديين العرب (وهم قدامى البابليين) بالرغم من ان ابناء الرافدين هم الذين وصلتنا منهم اقدم المعارف الفلكية مدونة ومدروسة ، وهي اساس تقسيماتنا الزمنية الحاضرة للسنة والشهور والساعات.. بالاضافة الى معرفتهم سبع كواكب سيارة ومن عددها هذا قسموا الايام اسابيع ...

وشيء شبيه بذلك يمكن ان يقال عن قدامى ابناء النيل الذين اتضح من الدراسات الحديثة للفتهم انهم ساميون ، أي عرب .. بعد أن كان المظنون انهم حاميون وهؤلاء ايضا عرب لكنهم ابعد نسبا اي اقدم عهدا بمغادرة الجزيرة العربية . بل لقد اثبتت لنا تحقيقاتنا اللغوية ان الآريين ايضا ينتمون الى هذه الجزيرة العربية المقفرة الولود .

غير ان الذي نقصده بقولنا ان العرب اول الفلكيين هو ان سكان المعربة (= الجزيرة العربية) قد كانوا على درجة فائقة من الاهتمام بمراقبة النجوم والعلم بحركاتها المتشابكة ومواقيتها الدورية منذ العهود الحجرية المجهولة .. قبل عهود التدوين ، وقبل اختراع الكتابة ، وقبل ان يتحضر النيليون والرافدانيون بالوف السنين .. اي منذ نحو عشرة الاف سنة .. ان لم نقل اكثر !

هذه الحقيقة المذهلة تخبرنا بها اللغة على كل حال.

ان لفظة (**الآن**) تعني الوقت ومنها (**الاوان**) . والفعل هو (آن **أينا**) اي حان الوقت ، و (آن **أونا**) اي تمهل في المشي ، واصل المعنى قضى وقتا في المشي اي من معنى الوقت ايضا .. ولا سيما ان (**الاين**) كذلك يعني التعب ، الذي يسبب التمهل في المشي .

وقد تطور (الاون) فصار ينطق مقلوبا (**النوء**) . ومما يؤيد ان (الاون) مشتق من (الآن) وانه كان يعني الوقت قديما هو ان مقلوبه المستحدث منه : (النوء) ما زال يعني الآن في الانكليزية بصورة (now)

وقد كان من معاني (النوء) عند العرب : (**سقوط نجم من المنازل في المغرب وطلوع رقيبه وهو نجم يقابله من ساعته في المشرق في كل ليلة الى ثلاثة عشر يوما . وهكذا كل نجم منها الى انقضاء السنة ما خلا الجبهة فان لها اربعة عشر يوما .. والانواء كانت عندهم ثمانية وعشرين معروفة المطالع في ازمنة السنة كلها يسقط منها في ثلاث عشرة ليلة (1) نجم في المغرب مع طلوع الفجر ويطلع آخر يقابله في المشرق من ساعته وكلاهما معلوم مسمى . وانقضاء هذه الثمانية والعشرين كلها مع انقضاء السنة ثم يرجع الامر الى النجم الاول . وكانت العرب في الجاهلية اذا سقط منها نجم وطلع آخر قالوا لا بد من ان يكون عند ذلك مطر او رياح فينسبون كل غيث يكون عند ذلك الى ذلك النجم فيقولون « مطرنا بنوء الثريا او بنوء الدبران »** ـ المنجد ـ مادة : نوء) .

وليس من المعقول ان القوم الذين لهم كل هذه المعرفة الدقيقة عن الانواء ليست لهم معرفة دقيقة اوسع نطاقا في شؤون فلكية اخرى . وانما هذا شأن اناس كانوا يرقبون النجوم ويرصدون حركاتها ومواضعها خلال أيام الحول ويحددون العلاقات المعقدة بين بعضها وبعضها في المكان من رقعة السماء وفي الزمان من مدار السنة.. بطريقة يسعنا مطمئنين ان نسميها (**علمية**) . وان كان في معلوماتهم شيء من خطأ او نقص فتلك سجية (العلم) دائما . وستأتي اجيال تجد في علم جيلنا هذا الكثير من الاخطاء والنواقص في الفلك وغيره .

ولسنا ندري الآن الى أي حد كانوا يستفيدون من هذه المعرفة الفلكية في حياتهم العملية بالاضافة الى

---

(1) في الاصل : ثلاثة عشرة ليلة ، وهو من الاغلاط المطبعية ، كما يظهر .

اهتدائهم بها في اسفار البراري وملاحة البحار ، لكننا نعلم ان امثال هذه المعلومات الفلكية ما زالت من المعارف العامة في مختلف انحاء الجزيرة العربية حيث يتحدث حتى العامة من الناس عن حركات النجوم ومواعيدها ويقرنون بها المواسم المناخية والنباتية والحيوانية والتجارية والصحية ...

والاغلب ان هذا تراث موروث من الجاهلية .

لكن اصطلاح (**الجاهلية**) انما يعني العهد الوثني القريب من عهد ظهور الاسلام . فالى اي امد يمكننا ان ندفع هذه المعلومات الفلكية الثمينة الى وراء ؟ الف عام ؟ الفي عام ؟ ثلاثة آلاف ؟ ...

ثم من الذي يقول ان هذه المعرفة من استنباط العرب انفسهم لا من مقتبساتهم عن جيرانهم الاكديين والمصريين ؟

اللغة هي التي تقول ذلك . بل انها تزعم ما هو أدعى الى الدهشة والعجب . تزعم ان الاكديين والمصريين هم الذين اقتبسوا معارفهم الفلكية الاولى عن ابناء العربة الاقدمين !

يظهر من القرائن الترسيسية في البحث اللغوي(٢) ان العرب استعملوا كلمة (**الآن**) ايضا بمعنى النوء ، ولا غرابة في ذلك فان المعجم العربي حافل بالالفاظ التي تحمل المعاني المتشابهة والمتواشجة والمغلوطة والمتضادة مما يعرفه كل ذي المام ولو يسير بهذه الامور. فمن معنى تمام السنة عند عودة النجم (**النوء**) الاول الى الظهور اطلقوا كلمة (**الآن**) على السنة . وان كان هذا المعنى قد ضاع من الكلمة بصيغتها هذه في عربيتنا المعجمية الباقية فان صيغتها هذه (آن ــ an) بنفسها ما زالت تعني السنة في الفرنسية ! وهي باللاتينية (annus) . اما في العربية فقد صارت تنطق (**عام**) !

ومن معنى تجدد الانواء استعملوا كلمة (**النــوء**) بمعنى الجديد ، وهي باقية بهذا المعنى في الفارسية بصيغة (**نو** ــ naw) ومنها (نوروز) : اليوم الجديد ، أي رأس السنة . وتنطق الكلمة في الانكليزية (**نيو** ــ new) ويؤثلونها من السكسونية (neôwe) (٣) . وقد وردت قبل ذلك في الاغريقية بصورة (**نيوس** ــ neos) وفي اللاتينية بصيغة (**نوفوس** ــ novus) وهي في الايطالية (**نوفه** ــ nove) وفي الفرنسية (**نوفوه** ــ nouveau) . ومعلوم ان حرف السين زائد في آخر الكلمتين الاغريقية واللاتينية يلحق بالاسماء عندهم ، وصلب الكلمة فيهما النون والواو فحسب .

ومن معنى الرياح والتغيرات الجوية ظهرت في بعض الدارجات العربية صيغة (**النو**) ــ بتشديد الواو ــ بمعنى الحالة او الطور او المزاج .

وظهرت صيغة (التنوع) تعبيرا عن كل ذلك فصار العرب ينطقون (النوء) بالعين : (**النوع**) ــ على طريقة بعضهم في العنعنة ــ بمعنى الصنف ، على اعتبار كل (نوع) جديدا او مغايرا لسواه من الانواع ، ومن هنا كان (التنويع) يتضمن شيئا من معنى التجديد والتغيير. و (النوع) تشبه صيغة (نو) ــ المشددة ــ بالدارجة ، وصيغة (نو) ــ المخففة الساكنة ــ بالفارسية .

ومن هذا المعنى توجد في الانكليزية (novel) التي تعني الطريف والنادرة والقصة ، و (novelty) التي تعني البدعة والطرافة .. وكلتاهما من الفرنسية حيث تنطقان nouvelle و nouveauté وهاتان من صيغة nouveau (جديد) المنحدرة من اللاتينية المذكورة آنفا.

ومن معنى الامطار التي كانوا يعتقدون انها تقترن بتبدل الانواء صار (النوء) منذ العهد الجاهلي يعني في العربية المطر ايضا . و (علم الانواء) يعني عندنا اليوم علم تعرف الاحوال الجوية وله في كل قطر خبراء وديوان مخصوص يرتبط بالملاحة الجوية على الاخص .

ومن معنى الرياح والامطار صار البحارة العرب منذ القدم فيما يبدو يطلقون (**النــوء**) على اعاصيرهم وتقلبات اجوائهم البحرية ، وهذا هو مفهوم الكلمة اليوم عند سواد القراء مما يدل على اثالته . وادل من ذلك على اثالة هذا المفهوم الملاحي لكلمة (النوء) هو انها تعني السفينة في الفارسية بصيغة (**ناو**) ! وهي في الاغريقية (naus) ، وفي اللاتينية (navis) ، وفي الايطالية (nave) وفي الفرنسية (navie) . ومنها في الانكليزية (navy) اسطول او قوة بحرية ، و (naval) : اسطولي او سفيني. ومن معنى السفينة في العربية (**النوتــي**) : « ملاح السفينة في البحر خاصة » .

وهذه الالفاظ بمعانيها المتطورة من لفظة (النوء) ومن معاني مجموعة الانواء وتجددها وارتباطاتها على قولهم بمناخ الارض ــ نعدها حديثة العهد بالنسبة الى (النوء) الذي استحدثت منه . ولا ندري كم من الاجيال انقضت حتى استحدثت هذه الالفاظ من النوء لكن الاغلب انها كانت اجيالا طوالا . واقدم من (النوء) كلمة (**آن**) التي تعني السنة في الفرنسية والتي من لفظها نشأت الفاظ **العام** ، **والاون** ، ثم **النوء** نفسه .

والذي يعتقده الباحثون ان الجزيرة العربية كانت غابة كثيرة الماء والنبات والحيوان والانسان ، ثم اخذ الجفاف يعمها منذ عهد انقضاء الحقبة الجليدية الاخيرة اي قبل نحو احد عشر الف سنة .

---

(٢) الترسيس طريقة لنا في دراسة اللغة تعني البحث عن رس الكلمة اي بدايتها منذ نطق بها الانسان الاول تقليدا لاحد الاصوات الطبيعية ، مع تعقيب تطورات الكلمة حتى اصبحت على الصيغة التي تشكلت بها في معنى حديث قد يكون ثقافيا راقيا . وقد اوضحنا ذلك بعنوان « علم الترسيس » في مجلة « اللسان العربي » ــ الرباط ــ العدد : ٥ ــ اب ١٩٦٧ .

(٣) نعني بالاثل والتاثيل : الاصل والتاصيل مقابل Etymology وقد أوضحنا سبب التسمية في موضوع «علم الترسيس» الآنف الذكر .

والذي نراه شخصيا ، بل الذي أرتنا اياه اللغة ، ان (**الآريين**) هم اوائل العرب المهاجرين الذين نزحوا من معربتهم منذ أخذ يكتسحها الجفاف والمحل فانطلقوا الى العراق ومن ثم هاجر بعضهم الى ايران وما وراءها واستقر الباقون في العراق ، كما انطلق آخرون الى سورية حيث استقر من استقر واستمر في الهجرة من استمر غربا الى مصر وشمالا الى البر الاناضولي وما وراءه ، أي أوروبا . فنحن لا نعتقد ان جميع الآريين الاوربيين قد قدموا اصلا من الهند أو أواسط آسيا ـ على الرأي الدارج ـ بل لا بد ان الكثيرين منهم قد قدموا رأسا من المعربة في موجات مختلفة عن طريق آسيا الصغرى وشماليافريقيا، ناهيك بالساحل السوري الذي أبحر منه الكنعانيون وربما اسلافهم من قبلهم ايضا ، غربا في كل اتجاه والى كل ساحل .

ثم كانت هجرة (**الحاميين**) الى افريقيا شماليها وشرقيها .

ثم كانت هجرة (**الساميين**) الى الهلال الخصيب وشرقي افريقيا .. فاستقروا مع من كان قد استقر من أسلافهم المهاجرين الاوائل في سورية والعراق ومصر والحبشة .

ولا نستطيع الآن تحديد هذه الهجرات ، فهي متوالية ومختلطة ومتشابكة ومتعددة الازمنة ومختلفة الاتجاهات ، تكدس بعضها فوق بعض واندمج بعضها ببعض . الا انه كان من نتيجة المخيض هذه المجموعات اللغوية الثلاث : الآرية والحامية والسامية . وكل ما يسعنا ان نقوله ان تلك الهجرات بدأت منذ بدأ المحل يلتهم الجنة المعربية قبل أكثر من عشرة آلاف سنة (٤) .

وثمة حقيقة تاريخية خطيرة اخرى يمكننا ان نستشهد بها لتؤيد لنا هذا الامر وهي ان التحريات التنقيبية في العراق تنبىء ان هذا التاريخ يتفق مع بدايات عهد الاستقرار السكني في ارض الرافدين وبناء المساكن المتقاربة في جماعات بشرية زراعية ـ اي بداية الحضارة ـ منذ نحو تسعة آلاف سنة . وذلك فيما يظهر اول عهد الانسان بانشاء القرية .. ثم المدينة (مع احتساب الاحقاب التمهيدية التي لا بد ان يكون المهاجر المعربي قد قضاها قبل ان ينتقل من حياة الترحل الى حياة الاقامة).

وبتعبير آخر ان اولئك المؤسسين هم العرب الاوائل الذين استوطنوا العراق بينما استمر شطر منهم في المسير شرقا عبر بلاد فارس او شمالا عبر الاناضول ، فكانوا اوائل الآريين . وكونهم شعبة من نفس القوم الذين اسسوا الحضارة الرافدانية الاولى يبرئهم ـ اي اخواننا الآريين ـ من وصمة العجز عن انشاء الحضارة ابتداء ، ولو أنهم في الواقع اقتبسوا كل حضارة لهم قديمة في الشرق الآسيوي والغرب الاوربي من حضارة اخوانهم في وادي النيل ووادي الرافدين وما بينهما .

فاذا كانت تلك الالفاظ البحرية والزمانية ـ التي اعتبرناها حديثة بالنسبة الى كلمة (النؤ) ـ موجودة في اللغات الآرية فمعنى ذلك ان العرب قد عرفوا الانواء الفلكية لا نقول بتلك الدقة الجاهلية حتما لكنهم عرفوا على كل حال شيئا عن تعاقبها وعلاقاتها التي منها انبثقت تلك الالفاظ ـ قبل ان ينسلخ الآريون من المجموعة العربية في المنطقة ، منذ عشرة آلاف سنة .. او اكثر .

فهل من غرابة ان ينبغ من اولئك الاعارب بعد ذلك ابناؤهم النجباء من النيليين والرافدانيين في هذا الفن ويخلفوا لنا أقدم القواعد المعروفة لعلم الفلك ويصبحوا اساتذة البشرية فيه ؟ ولا غرابة من ثم ان يطلق الشمريون (السومريون) لفظة (**آن**) على قبة الفلك نفسها اي السماء وهي اعظم الآلهة (ابو الآلهة) عندهم وعند أخلافهم الاكديين الذين كانوا ينطقون الاسم (**آنو**) ـ بضم آخره على طريقتهم .

قلناها مرارا ، ونقولها اخرى : ان درس اللغة بوعي وتفهم اشبه بعلم التنقيب الآثاري ، قادر على ان يكشف لنا حتى ما لا يستطيع التنقيب الآثاري ان يكشفه من الحقائق التاريخية المجهولة التي خرجت عن متناول المنقب الا انها ما تزال في متناول اللغوي وحده .. لان أبناء الغابة المعربية لم يسجلوها في مسطوراتلهم كتابية ولا نقوش جدارية ولا صور كهفية ولا شقف من الفخار.. وانما سجلوها لنا تسجيلا عفويا في لغتهم ، وانصرفوا .

وهذا الامر الذي تقدم بنا حديثه يمثل واحدة من الحقائق التاريخية ـ بل القبتاريخية ـ الخطيرة ، التي أنعم علينا بها (الغوص) في (بحر) اللغة .

ليت المرحوم حافظ ابراهيم يعلم اية نبوءة اعجازية قذف في مسمع الدهر ساعة حكى لنا ان اللغة العربية دام عزها قالت ذات يوم :

أنا (البحر) .. في احشائه الدر كامن
فهل سألوا (**الغواص**) عن صدفاتي ؟

الدار البيضاء (المغرب) **عبد الحق فاضل**

٤ ـ شرحنا موضوع الهجرات وبرهنا عليه في موضوع « فضل العربية على الحضارات القديمة » في المجلة المذكورة ـ العدد : ٣ ـ آب ١٩٦٥ .

لجميع مطبوعاتكم :

دار الفد
للطباعة والنشر

بيروت ـ تلفون : ٢٣٠٥١٢